الهجرة الداخلية في الأندلس وأثرها الاقتصادي والاجتماعي

Internal migration in Andalusia and its economic and social impact

بلقاسم بواشرية*

جامعة ابن خلدون- تيارت- ملحقة قصر الشلالة (الجزائر)، belkace1980@gmail.com

Belkacem Bouacheria*

Ibn Khaldoun University - Tiaret - Annex of Kasr El Challalah (Algeria)

تاريخ الاستلام:2022/11/26 تاريخ القبول:2023/05/26 تاريخ النشر:2023/07/30

ملخص:

تعمل الهجرة على تغيير نمط الحياة ومختلف مظاهرها –عادات وتقاليد ونظم اجتماعية واقتصادية وثقافية وحتى سياسية في كثير من الأحيان، والهجرة الأندلسية سواء أكانت نزوحا من الشمال نحو الجنوب، أو انتقالا بالكلية من الأندلس إلى العدوة المغربية، تقدم صورة المؤثر الذي تجلى أثره بوضوح في معالم الحياة، والتأثير في هكذا حالات يلحق كلا المجالين الجغرافيين مكان الانطلاق ومكان الوصول. وهنا تظهر أهمية هذا الموضوع لكونه يمثل حركية بشرية محورها الرئيس هو الإنسان فردا كان أو جماعة.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الهجرة الداخلية، المهاجرون، الاقتصاد، المجتمع.

Abstract:

Immigration is changing the way of life and its different aspects such as customs, traditions and often social, economic, cultural and even political systems, Andalusian migration whether it is an exodus from the north to the south or a move from Andalusia to Morocco, provides an image of the factor that its impact clearly demonstrated in the milestones of life and the influence in such cases affects the two geographical areas, the place of departure and the place of arrival. Hence the importance of this issue is demonstrated by the fact that it represents a human movement whose main axis is the person, individual or group.

Keywords :

Andalusia; Internal migration; Immigrants; Economy; society.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

لقي موضوع الهجرة عبر التاريخ البشري اهتماما كبيرا لدى الباحثين باعتبار الانسان صانع الأحداث، ونظرا لتعدد اهتمامات الأخير وأهدافه، تعددت أنواعها وتنوعت تبعا لذلك الآثار المترتبة عنها خاصة في المجال الاجتماعي والاقتصادي، وموضوع الدراسة (الهجرة الداخلية في الأندلس) يتناول النزوح السكاني من وإلى مختلف مدن شبه الجزيرة، وانعكاس ذلك على الواقع الاقتصادي والاجتماعي في حياة المجتمع الأندلسي.

والإشكالية الأساسية في موضوع الدراسة حول ما مدى تأثير الهجرة الأندلسية – الهجرة الداخلية أنموذجا– نحو المدن الأندلسية في الجنوب والجنوب الشرقي؛ منذ القرن الثاني للهجرة وإلى سقوط الكثير من المعاقل والمدن في أيدي النصارى ومساهمة المهاجرين في تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي لتلك المدن؟ وهل كان استقرار الجُمَل المهاجرة استقرارا دائما؛ أم كانت هذه الأماكن مجرد محطات لتبدأ بعدها هجرة ثانية؟ بالإضافة إلى ذلك كله هل عرف معنى الهجرة الداخلية تغيرا حسب الظروف والأحوال السياسية لبلاد الأندلس أم أنه بقي ثابتا دالا على مراد لا يتغير بتغير الأحوال؟

ولمعالجة هذا الموضوع سيتم التعرض لأهم المحطات التي وقعت وأن كانت الهجرة حلا للتخلص من كل المشاكل الطارئة على المناطق التي انطلقت منها إلى المناطق التي استقرت فيها، ومن ثم كشف التغيرات الواقعة بسبب ذلك الانتقال البشري، ولعل الدراسات الأندلسية تعرضت بشكل أو بآخر مباشر وغير مباشر لظاهرة الهجرة الأندلسية الداخلية وتأثيراتها، وربما كان التركيز أكثر على الأسباب والدوافع أكثر منها على النتائج، لاعتبارات عسكرية نصرانية؛ أو ما يعرف بحركة الاسترداد المسيحي وسقوط المدن الأندلسية في أيدي النصارى، ومن ثم خروج المسلمين تاركين وراءهم إرثا حضاريا منقطع النظير منتقلين إلى أقرب مدينة إسلامية في الجنوب، وما تمخض عن ذلك من نتائج كان التركيز أكثر على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي.

1. تعريف الهجرة

1.1. لغة:

أُخِذت من الفعل هجر يهجر هجرانا بمعنى الترك، أي ترك ما يلزمك تعاهده (ابن منظور، 2003م، ص24)، وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم والمراد به هذا المعنى في قوله تعالى: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" (الفرقان، الآية 30).

1.2. اصطلاحا:

هي الانتقال من مكان إلى آخر خلال زمن معين قد يطول وقد يقصر، ويعرفها القاموس الديموغرافي بأنها حركة فرد ما نتيجة تغيير مكان إقامته (عميرة، 2007م، صفحة 113). كما وردت اللفظة في حديثه صلى الله عليه وسلم حينما قال: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله

فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فله ما هاجر إليه.." (الامام النووي، (دتا)، رقم 01، صفحة3).

2. قراءة في المصطلح

لم تختص الهجرة بجنس معين ولا إقليم خاص، فقد عُرفت منذ أن بدأ الإنسان يسعى إلى عمارة الأرض واستغلالها لصالحه، لذلك فتتبع مسار الهجرة السكانية الداخلية خلال العصر الوسيط وبالذات في الأندلس إنما يتطلب تحديدها مكانيا وزمنيا، لكونها في العموم ظاهرة ديموغرافية معقدة تطرح مشاكل التعريف والتحليل فهي تنطوي على بعدين أساسيين هما الزمان والمكان (عميرة، 2007م، صفحة 112) ، ونظرا لوجود أنواع متعددة من الهجرة عبر التاريخ القديم والوسيط والحديث وحتى المعاصر، فلابد من تحديد أيضا معنى ونوع الهجرة التي نحن بصدد دراستها.

فالهجرة الداخلية في الأندلس أخذت أشكالا وصورا متباينة منذ الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة إلى غاية سقوط آخر معقل إسلامي–غرناطة– مع نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فأحيانا كانت عملا سياسيا يدخل ضمن إطار التنظيم والتوزيع للسكان قصد إعمار مناطق جديدة والتخلص في نفس الوقت من الفائض البشري الذي قد يعيق النظام السياسي الحاكم على التحكم في مجريات الأمور داخل المدينة الواحدة، أو التخلص من فئة حاولت التمرد على السلطان أو وقفت في وجهه، وأحيانا كانت عملا اقتصاديا فرضته ظروف دينية ويكون القصد منها إحداث نوع من التوازن الاجتماعي والاقتصادي أو قطع الطريق على جهات خارجية تحاول استغلال ظروف لصالحها، أو ربما تكون لتعصب ديني الهدف منه إخلاء منطقة ما؛ من جنس معين بذاته ثم تعميره بما يناسب من جنس آخر.

ولهذا فالهجرة الداخلية في الأندلس اختلفت باختلاف الظروف والعوامل الفاعلة لحركة السكان وانتقالهم من منطقة لأخرى. هنا يمكن أن نطرح تساؤلا حول ما يحويه هذا المصطلح – الهجرة الداخلية– من حدود جغرافية: –هل الهجرة الداخلية تنحصر ضمن الجغرافيا الطبيعية لبلاد ما؛ أم أنها تتأثر بالجغرافية السياسية تتمدد بامتدادها وتتقلص بتقلصها؟

والمقصود هنا مثلا في بلاد الأندلس في فترات كانت مستقلة بذاتها جغرافيا وسياسيا أي بها سلطة سياسية مستقلة مثل ما كانت عليه أيام الإمارة والخلافة الأموية، ولذلك ما من جماعة أو فئة سكانية تتنقل في حدود الدولة تعتبر هجرة داخلية، أما في عصر الطوائف فقد تقلصت المساحات والحدود السياسية باعتبار كل دولة من دول الطوائف أصبحت تمثل كيانا سياسيا مستقلا قائما بذاته، وبالتالي كل انتقال بشري من دولة إلى أخرى يصبح هجرة خارجية؛ ولم تعد الهجرة الداخلية إلا ضمن حدود الدولة الواحدة الضيقة، وضمن هذه المقاربة سيعرف هذا المصطلح فيما بعد مجالا جغرافيا أوسع من ذي قبل حينما تصبح الأندلس جزءً من بلاد المغرب

تحت سلطة سياسية واحدة زمن المرابطين والموحدين، وهنا ألا تعتبر الهجرة من الأندلس إلى المغرب هجرة داخلية؟

في حالة ما إذا حصرنا المراد بهذا النوع من الهجرة في الحدود الجغرافية دون السياسية فكيف نسمي إذن الهجرة من بلدة مسلمة إلى بلدة نصرانية مجاورة أداخلية هي أم خارجية باعتبار أن البلد وحدة جغرافية واحدة؟ يبدو من خلال استقراء أحداث التاريخ للمنطقة يكون الرأي تأييدا لما ورد في السؤال وليس نفيا له.

3. أنواعها

من خلال استقراء الأوضاع السائدة في الأندلس عبر كل مراحل الحكم الإسلامي يمكن استخلاص أنواعا من الهجرة مختلفة باختلاف الزمن والمكان والدوافع والأهداف وهي على النحو التالي:

1.3 هجرة إعمار:

يبدو أن الهجرة في هذا المقام وبعد الاتفاق على أنها أخذت في الغالب معنى التهجير أو تحويل أو نقل مجموع سكاني ما من منطقة إلى أخرى لأسباب وأهداف سياسية واجتماعية واقتصادية وحتى دينية، ولهذا فالمسألة تظهر للعيان منذ القرن الثاني للهجرة أو بالأحرى مع نهاية عصر الولاة في الأندلس وقبيل قيام الدولة الأموية، وذلك حين ولي أمر الأندلس أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي من قبل والي إفريقية حنظلة بن صفوان بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك(105هـ-120هـ/723م-738م)، ورغبة منه –أبو الخطار- في القضاء على الفتنة القائمة آنذاك بين القيسية واليمنية وبين العرب والبربر فإنه اتخذ من نقل وتوزيع القبائل العربية على عدة مناطق متباعدة جغرافيا، أسلوبا حكيما لتجنب آثار الفتنة من جهة وتحويل الفائض البشري هذا نحو مناطق جديدة تحتاج إلى إعمار جديد، إذ يقول ابن القوطية في هذا الصدد: "ونظر في إنزال الشاميين في كور الأندلس وتفريقهم عن قرطبة إذ كانت لا تحملهم، فأنزل أهل دمشق بإلبيرة وأهل الأردن برية وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعا منهم بتدمير وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم" (ابن القوطية، 1989م، صفحة 32). بل إنه أعطى لكل منطقة نزل بها أصحاب جهة معينة اسم بلدهم في المشرق فإلبيرة مثلا أخذت اسم دمشق ورية أخذت اسم الأردن وهكذا مع كل الجهات (لسان الدين بن الخطيب، 1393هـ -1973م ، صفحة 102) (أحمد بن محمد المقري، 1388هـ-1968م ، صفحة 148)، وبالتالي كان الهدف واضح جدا في إعمار المنطقة ومحاولة منه في تثبيت هذه العناصر البشرية في أماكنها الجديدة، وهذا ما يؤكده ابن الخطيب في قوله: "ولما استقر بهذه الكور(غرناطة-إلبيرة) أهل الإسلام، وأنزل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميين...وأقطعهم ثلث أموال المعاهدين، استمر سكناهم ...يعالجون الأرض، وعمران القرى..." (لسان الدين بن الخطيب، 1393هـ -1973م ، الصفحات 106-107).

ونفس السياسة نجدها مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك أيام حصار البربر لقرطبة الذي انتهى بجلوس مرشحهم سليمان المستعين على عرش الخلافة سنة 403هـ-1013م، فلما رأى هذا الأخير صولة البربر وتحكمهم في سائر السلطات رأى أن يعمل على تفريقهم في الكور والثغور إرضاءً لهم من جهة نظير ما يحصلون عليه من امتيازات في المناطق الجديدة وإعمارهم إياها، ومن جهة أخرى تفريقا لشملهم وإبعادا لهم عن قرطبة دار ملكه حتى يحول عن إزعاجهم له في أي وقت ما، حيث أقطع قبيلة بني برزال وبني يفرن ولاية جيان وبني دمر وازداجة منطقة مورور وشذونة، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب (عبد الله عنان، 1389هـ-1969م ، صفحة 123) وأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري بن مناد ولاية إلبيرة، وهذه الأخيرة التي تحدث عنها كثيرا عبد الله بن بلكين في مذكراته حيث يذكر أن أهلها ونظرا لما تميزوا به من جبن "وكانوا من أجبن الناس وأخوفهم على مدينتهم" (عبد الله بن بلكين الزيري، دتا، صفحة 33)، كانوا سببا في استيطان قبيلته صنهاجة ومنها بنو زيري وتمركزهم في المدينة، وذلك لما أرادت هذه القبيلة المغادرة إلى المغرب جراء الفتنة القائمة آنذاك، لم يجد أهلها بدا سوى من التوسل إلى زاوي بن زيري البقاء عندهم وحمايتهم مقابل تمكينه من أنفسهم بالأموال والسكنى، يقول ابن بلكين: "فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس وأنها أضرمت نارا، وتوقعوا أن يتخطفهم الناس وجهوا إلى زاوي المذكور، شاكين مما هم فيه: (إن كنتم جاهدتم قبل اليوم فهذا الجهاد آكد عليكم، أنفس تحيونها وديار تحمونها، وعزة تأوون إليها، ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا، لكم منا الأموال والسكنى ولنا منكم الحماية والذب عنا)" (عبد الله بن بلكين الزيري، دتا، صفحة 33) ، فرضي بنو زيري البقاء بل إن الكثير من البربر التحقوا بهم ونزلوا معهم غرناطة وأهلها راضين بذلك مستبشرين "فأتوهم (بني زيري) محتشدين متألفين، قد انقطع إليهم كل من انتمى إلى البربر وتعلق بهم، ونزلوا ساحتهم وحيوهم بالتحف والأموال، وشاركوهم أحسن مشاركة راضين بهم لا ساخطين، واستجابت لهم عند ذلك معاقل كثيرة منها جيان وأنظارها وحصن آشر من الغرب..." (عبد الله بن بلكين الزيري، دتا، صفحة 33) (عبد الرحمن بن خلدون، 1421هـ-2000م ، صفحة 239).

وليس مستبعدا أن حملة ألفونسو المحارب عام 520هـ/1126م، حسب ما ذكره بوتشيش نقلا عن المستشرق لاغارديرا أنها كانت مهيأة ومخططة مستهدِفة بذلك إجلاء المسيحيين الراغبين في الهجرة إلى المناطق المسيحية لتعميرها وتنمية زراعتها (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 79)، خاصة إذا علمنا أن الكثير من المعاهِدة كانوا يتعاطون الفلاحة، "فبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية روم" (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 79) ، بل إن المحارب حمل معه عددا من معاهدة غرناطة لعمارة أرض طليطلة وهذا يقوم دليلا كما يضيف الباحث بوتشيش على إتقانهم عمارة الأرض (إبراهيم القادري

بوتشيش، دتا، صفحة 75) ، أما بالنسبة إلى العدد الذي التحق بالملك النصراني، فابن عذارى يذكر أن هذا الأخير عند خروجه من بلده متجها نحو شرق الأندلس كان معه خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل (ابن عذارى المراكشي ، 1400هـ-1980م، صفحة 113)، بينما صاحب الحلل يذكر أنهم كانوا أربعة آلاف محارب فما كاد يخترق الكثير من بوادي المنطقة ولم يكد يصل إلى غرناطة حتى كان معه خمسون ألفا (ابن سماك العاملي، 2010م ، صفحة 160)، فرغم ما في الأمر من مبالغة فإنه يدل على كثرة عدد الذين التحقوا به ورافقوه إلى طليطلة، ومن ثم ساهموا في زيادة عدد سكان طليطلة وإعمارها، لأن عدد المسلمين كان قد تناقص بسبب هجرتهم نحو المدن الإسلامية القريبة، فمنطقة الثغر الأعلى مثلا عرفت نموا سكانيا كبيرا إثر تدفق المهاجرون بعد سقوط مدنهم في أيدي النصارى (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 57) ، وهذا ابن الأحمر قد أخذ يحشد حوله جميع المسلمين الذين غادروا البلاد التي افتتحها النصارى (يوسف أشباخ ، 1377هـ-1958م ، صفحة 436).

2.3 هجرة استثمار:

والمقصد من هذا استغلال لمقومات الأرض أو المنطقة التي إما تركها المسلمون وعمّرها النصارى من بعدهم، أو المنطقة التي انتقل إليها المهاجرون، بحيث يتم استغلال كل ما توفر في ممارسة مختلف الأنشطة الاقتصادية(زراعة – صناعة وتجارة)، وأبرز الأمثلة حول هذا هو ما وقع من هجومات على جزر البليار عام 442هـ-1050م، حيث شاركت قوى أوربية متعددة من نورمانديين وفرنسيين وايطاليين وذلك لطرد الأندلسيين منها حتى يتمكنوا من التقدم أكثر والتجارة فيها بحرية، بل كانت كل محاولات أوربا المتكررة بدعم من الكنيسة في روما على استعادة شمال الأندلس، باعتباره مصدرا للثروة كالفضة والذهب والنحاس والزئبق وغير ذلك من المعادن الثمينة (رابح رمضان، 2007م-2008م ، صفحة 127)، وهذا ما يوحي من جهة ثانية على أن حروب الاسترداد المتكررة والتي أدت بهجرة المسلمين من مدنهم نحو الجنوب كان الهدف الأكبر هو الجانب الاقتصادي، إذ يمارس النصارى بعد الاستيلاء على بعض المناطق مختلف الأنشطة الفلاحية واستثمار أراضيها خاصة وأن الأندلس تمتلك كل مقومات الزراعة الناجحة، هناك مثال آخر حول هذا النوع من الهجرة وهو ما وقع مع معاهِدة غرناطة الذين قدموا أنفسهم إلى الملك النصراني ألفونسو المحارب حين اجتيازه أرض شرق الأندلس والذي دام حوالي سنة كاملة وثلاثة أشهر، وقد بلغ الذين ظاهروه 12 ألف من مقاتلتهم فضلا عن الذين كانوا ينتظرون قدومه إلى غرناطة، ونظرا للعدد الهائل لهؤلاء، فإن السلطة المرابطية وبناءً على فتوى ابن رشد(ت520هـ) قامت بنقلهم وتحويلهم عن الأندلس إلى المغرب، ورغم الاختلافات بين قراءات المؤرخين لأسباب تغريب هؤلاء المعاهدة فمنهم من أرجعها إلى الاضطهاد الذي لحق هؤلاء من طرف السلطة المرابطية خاصة الدراسات الغربية المتعصبة ضد الحكم المرابطي، ومنهم من أرجعها إلى عوامل سياسية تتجلى في رفضهم

للسيطرة الإسلامية، وقال البعض أنها مجرد حادث هدم إحدى الكنائس ولذلك كان لزاما على المحارب إظهار الحماية لبني دينه، إلا أن هؤلاء كما يضيف الباحث القادري بوتشيش قد ابتعدوا كثيرا عن السبب الحقيقي ووقعوا فيما أسماه هو "بالتخبط" "وسبب هذا يكمن في عزل عملية التغريب عن جذورها الاقتصادية، لذلك قلة من الدراسات فطنت إلى الدوافع الحقيقية التي كانت وراء هذا الحادث" (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 79) ، وهنا يقدم الباحث مثال عن تلك الدراسات وهو ما أشار إليه لاغاردير أعلاه، يضاف إلى هذا كله ما تميزت به المدينة من كثرة خيراتها الزراعية وجودة محاصيلها، فالمعاهِدة أنفسهم أخبروا المحارب في مراسلاتهم إياه "بكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وأنواع الفواكه" (ابن سماك العاملي، 2010م ، صفحة 156)، وبالتالي يؤكد بوتشيش أن الهدف من تغريب هؤلاء المعاهِدة هو قطع الطريق على المحارب حتى لا يفكر في العودة مرة أخرى إلى هذه المدينة التي لها أهمية اقتصادية كبرى في المنطقة، هذا من جهة ومن أخرى الوقوف في وجه هجرة الأيدي العاملة المسيحية حتى لا تكون سببا في اعمار المناطق التي أخلاها المسلمون بعد سيطرة النصارى عليها، والشاهد في هذا كله هو عدم حرمان بيت المال من الموارد المالية كدفع الجزية أو مختلف الضرائب وفي نفس الوقت سيتم استغلال الخبرة المسيحية وتنمية الأراضي الزراعية في المغرب الأقصى (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 80).

3.3 هجرة إخلاء:

وهذا النوع من حركة السكان أو انتقالهم من منطقة إلى أخرى كان الهدف من ورائه بالدرجة الأولى هو التخلص من مجموعات بشرية بعينها، إما تجنبا للمشاكل التي قد يتسببون في حدوثها مستقبلا أو الطرد النهائي من أماكن يرى فيها الطرف الغالب أنه أحق بها، وبالتالي وجب اخلاؤها ومن ثم سيتم اعمارها تدريجيا بما يناسب السلطة الحاكمة وتوجهاتها السياسية والدينية والعرقية.

ولعل أبرز الأمثلة في ذلك كان مع بداية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، يظهر ذلك خلال أيام الأمير الحكم الربضي(154هـ-206هـ/771م-821)، حين خرج عليه أهل الربض بقرطبة عام 203هـ/808م، لا لشيء ولا لسبب يُعتد به كحجة لخروجهم، لذلك وبعد تغلبه عليهم وإذلالهم وقتل الكثير منهم، اتخذ قرار وهو تهجير أهل الربض وإبعادهم عن قرطبة أو حتى عن الأندلس وهذا ما وقع بالفعل لهم "فخرجوا أفواجا بأهاليهم وأولادهم ولم يعرض لأحد منهم في شيء ...وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس....وأكثر من هرب من أهل العلم والخير ممن اتهم أو خاف على نفسه إلى ناحية طليطلة، ثم أمنهم الحكم وكتب لهم أمانا على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشى قرطبة أو ما قرب منها".

وعليه فإن هذا النقل للسكان فرضته القرارات السياسية (بيار جورج، 1985م ، صفحة 100)، على الواقع ليس اختيارا حرا من المتنقلين ولا هو اختيار من السلطة، ولكن هو أمر رآه الأمير اختياري لا مفر منه، وذلك يعتبر عقابا لهؤلاء الذين تمردوا على السلطة الحاكمة من جهة، ومن أخرى تجنب الدولة لحركات مناوئة في المستقبل.

أما الحركة السكانية داخل الأندلس على وجه الخصوص والتي لازمت التواجد السكاني في المنطقة ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى غاية قيام مملكة بني الأحمر واستقرارها على مساحة معينة حتى كان الإخلاء الرسمي للمنطقة بالكامل عقب سقوطها نهائيا عام 897هـ/1492م، وهي تنقل السكان أو هجرتهم من المدن الأندلسية الإسلامية التي كانت تقع تباعا في أيدي النصارى، ونظرا لتكرر الحادثة كثيرا، تكونت لدى البعض نظرة نحو المستقبل لما رأى السقوط والهجرة تزداد يوما بعد يوم، فأصبح يدعو إلى الهجرة النهائية من الجزيرة وليست نحو المناطق الإسلامية فحسب، وهي نظرة تنم عن اليأس الذي بلغته النفوس جراء تلك الحوادث المؤلمة، مثلما دعا إليه الشاعر الطليطلي ابن العسال حين قال:

يأهلَ أندلسٍ حُثّوا مطيّاكُمُ فما المقام بها إلاّ من الغَلَطِ
الثّوب ينسلُّ من أطرافِهِ وأرى ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَطِ
ونحنُ بينَ عدوٍّ لا يفارِقنا كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَط

(ابن سعيد المغربي، دتا، صفحة 21)

ولهذا سنذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر وأهمها:

مدينة قلمرية وهي من أولى المناطق التي تغلب عليها النصارى وهجرها سكانها حيث عانت من الحصار ستة أشهر عام 456هـ/يناير 1064م، ما فرض على أهلها التسليم وطلب الأمان والسماح لهم بالخروج مع أولادهم ونسائهم مع ترك أملاكهم إلا نفقات الطريق (محمد محمود النشار، 2007م، صفحة 30)، أما حين سقطت طليطلة عام 478هـ/1085م ووقوع المكروه بأهلها لجأ البعض من سكانها إلى الهجرة نحو الممالك الإسلامية في الجنوب والغرب (ليفي بروفنسال، 1990م، صفحة 144)،ومدينة شنترين الثغرية حين كثرت غارات النصارى عليها اضطر ابن بسام(542هـ) إلى الفرار هو من معه، بل إن أهل هذه المنطقة غادروها بالكلية وأصبحت المنطقة خالية من أهلها نتيجة ما وقع كما يقول هو نفسه عن حاله وحال الإقليم: "بتواتر طوائف الروم علينا في عقر ذلك الإقليم،...وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معي المسالك، على مهامه تكذب فيها العين والأذن، وتُسْتَشْعَرُ فيها المحن":

مهامِهَ لم تَصْحَبْ بها الذئبَ نفسه ولا حَمَلَتْ فيها الغُرَابَ قوادمُهْ

(أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، 1417هـ-1997م، صفحة 19)

وهذه مدينة سرقسطة فبمجرد دخول النصارى إليها عام 512هـ/ديسمبر 1118م، أخذ الناس في الرحيل والفرار، فبلغ عددهم نحوا من خمسين ألفا (ابن الأبار، 1960م، صفحة 249) (حسين مؤنس، 1413هـ-1992م، صفحة 44) (بلقاسم بواشرية، 2011م/1432هـ، صفحة 80)، ولما عقدت معاهدة التسليم بين النصارى وأهل بلنسية (سبتمبر 1238م-صفر 636هـ) اشترطوا أن تسلم المدينة إلى الملك النصراني خايمي الأول على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاؤوا، "ولما دخلها الملك غادرها المسلمون وهم زهاء خمسين ألف نفس في خمسة أيام وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر" (يوسف أشباخ، 1377هـ-1958م، صفحة 424)، وهذه مدينة أبدة بعد حصارها في أواخر سنة 630هـ/يوليه 1233م، اضطرت إلى التسليم مقابل أن يسمح لهم النصارى بنقل أموالهم وما يستطيعون حمله معهم وأن يضمنوا سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضي الاسلامية (عبد الله عنان، 1389هـ-1969م ، صفحة 402) ومدينة قرطبة غادرها المسلمون المغلوبون في 23 شوال 633هـ/ يونيو 1236م، وتفرقوا في باقي مدن الأندلس (يوسف أشباخ، 1377هـ-1958م، صفحة 433) ، ونفس المصير لقيته مدينة **اشبيلية** يوم 23 نوفمبر 1248م/646هـ حيث اشترط أهلها عند التسليم أن يهاجروا منها بعد أن يبيعوا أملاكهم وتمنح للمهاجرين مُهلة شهر كامل، فغادرها من المسلمين نحو 300 ألف مهاجر. وقصد أكثرهم كورة غرناطة وكان قد وعدهم ابن الأحمر بحسن الوفادة والحماية (يوسف أشباخ، 1377هـ-1958م، صفحة 444) ، لا ندري إن كان فعلا هذا هو العدد الحقيقي الذي هاجر المدينة وتوجه أغلبه نحو غرناطة هل كانت اشبيلية تحوي هذا العدد من الساكنة؟ وكيف بغرناطة تتحملهم خاصة وأن الراوي ذكر بأن ابن الأحمر قد وعدهم بالاستقبال والحماية؟ يبقى التحقق واردا في هذا الكم الهائل من السكان أهو حقيقة أم أن في الأمر مبالغة، ورغم ذلك تشير هذه الحادثة إلى كثرة المهاجرين من تلك المدينة نحو غرناطة باعتبارها الملجأ الذي يرتجى منه الأمان (آمنة سليمان البدوي، 2013م ، صفحة 267).

وعليه فهذه شواهد على هجرة الاخلاء، بمعنى لم يكن الغرض منها اعمارا أو استثمارا بقدر ما كان الهدف هو طرد السكان واخراجهم من أرضهم، إما لتجنب عصيان أو تمرد (حادثة الربض)، وإما القضاء على وجود "اسلام ومسلمين في المنطقة" (كحركة الاسترداد مثلا).

4. آثارها

4. 1. الاقتصادية:

تظهر الآثار الاقتصادية للهجرة الجماعية من منطقة إلى أخرى من خلال ممارسة مختلف الأنشطة من زراعة وصناعة وتجارة، وفي هذه الحالة تختلف عن الآثار الاجتماعية فالأمر يتعلق بالأشكال المادية وليس بالأشكال

المتعلقة بذات المجتمع، فمن خلال تتبع الهجرة الجماعية خاصة هجرة المسلمين، نلاحظ في الغالب خروجهم يحملون معهم أموالهم (ابن الأبار، 1985، صفحة 190)، وبالتالي ما يوحي بتدفق رؤوس الأموال إلى البلد المهاجر إليه ما يساهم في حركية النشاط خاصة التجاري، أضف إلى ذلك فالعناصر المهاجرة ولابد أن تكون بينها فئات أصحاب الحرف والصنائع والزراع وهذا بدوره يعمل على كثافة هذه الأنشطة وزيادة وتيرتها، وهذا ما ظهر بشكل جلي في زيادة النشاط التجاري في مدينة المرية باعتبارها مدينة ساحلية فقد ساهم فيها المهاجرون من المناطق التي استردها النصارى بشكل كبير، بل إن التأثير لم يكن مقتصرا على الفئات الإسلامية ببعضها فقط، فحتى النصارى كان لهم يد في ذلك، ففي الميدان الزراعي مثلا قد رأينا سلفا "هجرة الاستثمار" حيث ساهم النصارى المبعدون إلى المغرب الأقصى في تطوير المجال الزراعي بفضل خبرتهم وتجاربهم العميقة وتقاليدهم في الزراعة مما أعطى دفعا قويا للإنتاج الزراعي، وقد بلغ تأثيرهم أن استفاد منهم المغاربة في مجال البناء والزراعة والسقي وكافة المجالات الأخرى التي افتقروا فيها إلى الخبرة والدربة (القادري بوتشيش، دتا، صفحة 92)، لأن الكثير منهم كانوا في بوادي غرناطة فلاحين وزراع.

إن تأثير هذا النوع من الهجرات بقدر ما كان واضحا في مناطق الوصول، أيضا كان أوضح في مناطق الانطلاق، إذ تلعب سياسة ملء الفراغ الدور الأهم في هذا المقام، لأن انتقال المسلمين من منطقة ما؛ إلا ويحل محلهم جموع النصارى انتهازا للفرص، فتتداخل هنا نوعين من الهجرة وهما الاعمار والاستثمار، أي اعمار بشري للمنطقة واستثمار واستغلال اقتصادي لمقوماتها المختلفة، أو مثل ما حدث من تغريب للنصارى فصار ما كان بأيديهم للمسلمين مستغلين ذلك لصالحهم.

4. 2. الاجتماعية:

يبدو طبيعيا جدا حينما تقع أية حركة لنقل مجموعات سكانية من منطقة إلى أخرى أن تتمخض عنها عدة نتائج من الناحية الاجتماعية، حيث تتنوع هذه النتائج بين الايجابية والسلبية، فأما الايجابي فيها فإن المنطقة المستقبلة ستعرف نموا ديموغرافيا كبيرا حسب ما هاجر إليها من أعداد، هذا في الظرف الراهن الذي تقع فيه الهجرة، وقد يأخذ هذا النمو وقتا قد يطول وقد يقصر وهذا دائما مرتبط بعدد المهاجرة وتمازجهم مع الساكنة، فمنطقة الثغر الأعلى مثلا عرفت نمو ديموغرافيا كبيرا بسبب تدفق اللاجئين الأندلسيين الفارين من عملية الاسترداد (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 57)، ويظهر ذلك بعد الزيادة الطبيعية التي هي الولادات ونسبتها إذا ما قورنت بعددها ونسبتها قبل أن تقع الهجرة إليها، ونظرا لصعوبة الوقوف على النسب الدقيقة والإحصائيات بين هذه وتلك تبقى الدراسة متوقفة على الاستنتاجات من خلال الأحداث والوقائع أو من خلال ملاحظات متفرقات ومجموعة عن طبيعة الحياة الاجتماعية في البلد المهاجر إليه.

وعليه فإن زيادة عدد السكان في مدينة ما عن طريق الهجرة من شأنه يحدث داخل المجتمع تنوعا بين عناصره تتبادل فيما بينها أساليب وأنماط العيش مما يدفع إلى التطور في التفكير والثقافة وتنوعهما، سواءً وقعت الهجرة لجماعة إسلامية إلى أخرى أو من مسيحية إلى إسلامية بل في الحالة الأخيرة يكون التنوع أكثر تمايزا ما قبل الهجرة وما بعدها، ونظرا لروح التسامح السائدة في المجتمع الإسلامي الأندلسي فإن حدود التمازج والتأثير تتميز بالسلاسة واللين، حيث تؤكد بعض النصوص أن المستعربين المبعدين إلى المغرب الأقصى أصبحوا مغاربة على حد تعبير أحد الدارسين (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 112)، ومن جهة أخرى فإن المغاربة تأثروا ببعض الاحتفالات المسيحية كالاحتفال برأس السنة الميلادية، ضف إلى ذلك بعض المناسبات الأخرى مثل الـ"دانتيسا"، وهي مناسبة يُحتفل بها عندما تبدأ أسنان الطفل في الظهور (نوارة شرقي ، 2007م-2008م، صفحة 83)، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على التأثير المتبادل نتيجة التعامل خاصة وأنهما يشتركان في نفس الموقع الجغرافي.

أما من ناحية الثقافة فإن اللغة العربية بصفتها لغة الدولة فإن أولئك المعاهدة المغربون إلى المغرب الأقصى قد تعلموها بل أتقنها البعض، فهذا أحد الأساقفة وهو ميكائيل بن عبد العزيز كتب نسخة من الإنجيل بالعربية بخط يده دون أن يتلقى أية معارضة (إبراهيم القادري بوتشيش، دتا، صفحة 87، 88، 115)، خاصة وأنه كان في زمن المرابطين الذين رماهم الكثير من المستشرقين بالتعصب الديني والاضطهاد ضد النصارى.

أما في مجال العمران فقد عرف توسعا كبيرا إثر حركات الهجرة، حيث ازدادت الكثير من المدن في مساحاتها حتى خرجت المباني على أسوارها القديمة واتسعت في الجهات التي تسمح ببناء المساكن والدور، فمدن شرق الأندلس على وجه الخصوص عرفت حركة توسع عمراني كبير خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث كانت المنطقة ملاذا للمهاجرين إليها حتى ضاقت بهم أسوارها فخرجت عن نطاقها العمراني القديم (بلقاسم بواشرية ، 1438هـ-2017م، الصفحات 250-251)، فهذه مدينة المرية مثلا لما ضاقت البلدة القديمة بالوافدين من مختلف الأنحاء، حدثت عملية توسع في المباني والمساكن نحو جهة الشرق على امتداد فحص المدينة وباتجاه الغرب في المنطقة بين وادي الرملة وجبل الكنيسة، فتكونا بذلك ربضين الأول هو الشرقي ويسمى المصلى، والثاني هو ربض الحوض نسبة إلى جب كبير كان موجودا هناك (عبد العزيز سالم، 1990م ، الصفحات 111-112).

-أما الجانب السلبي في الهجرة الجماعية من مدينة إلى أخرى أو من الريف إلى المدينة، فإن أول ما يظهر من المساوئ عدم استيعاب الموقع المقصود عدد المهاجرين في لحظة حدوث الهجرة، خاصة وقد رأينا أمثلة عن هجرة الآلاف من السكان ولجوئهم إلى المدن الإسلامية بسبب حروب الاسترداد وتغلب العدو على مدنهم، وهذا ما يخلق حالة من التذمر بين أوساط السكان إذ تقل حتما أماكن المأوى وتوابعها من غذاء ومؤن، وهذا ما يؤدي

بدوره إلى ظهور الآفات الاجتماعية كاللصوصية والسرقة والزنى...وغيرها، فالكثير سيصبح في حاجة إلى تأمين سبل عيشه وليس بالضرورة أن تكون بوسائل مشروعة وبالتالي تصبح الأزمة "أزمة أخلاق" (بلقاسم بواشرية، 2017م ، صفحة 291).

خاتمة:

ما يمكن الخلوص إليه في الأخير هو أن الهجرة الداخلية في الأندلسية لم تبقى تحمل ذلك المعنى العام الذي اصطلح عليه علماء المعاجم، حيث اتضح من خلال عرض الأحداث وتقلباتها مع مرور الزمن أنها لم تتقيد بالجغرافيا الطبيعية بل تماشت والجغرافيا السياسية للدول والممالك، وبالتالي كانت تتقلص بتقلصها وتتمدد بتمددها.

– كذلك ونظرا للحركة السكانية التي عرفتها بلاد الأندلس عبر مسارها الزمني اتضحت خلالها أنواعا من الهجرة تداخلت فيها الأسباب والعوامل مع الأهداف، هذه الأخيرة أحيانا تكون مسطرة ومخططة من قبل الفاعل في حركة الهجرة، وأحيانا أخرى كانت نتيجة حتمية دون سابق قراءة أو دراسة للوضع الراهن.

– أضف إلى ذلك يظهر من خلال العرض السابق أن حركة الهجرة الداخلية في الأندلس لم تعرف التوقف يوما نظرا لظروف المنطقة، خاصة مع بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وبالتالي عرفت الاستمرارية في التنقل والاستمرارية في التأثير والنتائج المترتبة عنها.

– ما دام أيقونة الهجرة هو الفرد أو المجتمع بصفة عامة، فإن هذه الحركة كانت مزدوجة التأثير منطقة الانطلاق من جهة ومن أخرى منطقة الوصول على السواء، كطرفين أساسيين في المعادلة، وبالتالي فإن التغير ظهر في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية من سلوكيات ومعاملات بل وحتى أخلاق عامة هذا المجتمع أو ذاك، (الهجرات الثلاث: الاخلاء والاعمار والاستثمار).

– أما من الناحية الاقتصادية فتأثرها نتيجة حتمية لهذه الحركة، لأن تحرك الجموع البشرية من منطقة جغرافية واستقرارها في أخرى، يؤدي إلى ازدياد حركية مختلف الأنشطة من زراعة وصناعة وتجارة، وهذا ما شهدته كل المدن التي حصل وأن كانت محطة استقبال للمهاجرين خاصة المنطقة الشرقية من البلاد الأندلسية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن الأبار. (1960م). الحلة السيراء. ج2. بيروت، لبنان: دار النشر للجامعيين.

2- أشباخ يوسف. (1377هـ-1958م). تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.

3- ابن بسام. (1417هـ-1997م). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الأول. المجلد الأول. بيروت، لبنان: دار الثقافة.

4- بروفنسال ليفي. (1990م). الإسلام في المغرب والأندلس. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

5- البدوي آمنة سليمان. (2013م). تجلّيات سقوط المدن الأندلسية في الشعر الأندلسي (من 456هـ – نهاية القرن السابع الهجري). مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلّد 40. العدد2.

6- بواشرية بلقاسم.(2011م/1432هـ). مملكة بني هود في الثغر الأعلى الأندلسي.(رسالة ماجستير). إشراف محمد الأمين بلغيث. جامعة الجزائر.

7- بواشرية بلقاسم. (1438هـ-2017م). الإسهام الحضاري لشرق الأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين- 479هـ-668هـ/1086م-1269م. (أطروحة دكتوراه). إشراف محمد الأمين بلغيث. جامعة الجزائر 2-أبو القاسم سعد الله. الجزائر.

8- بواشرية بلقاسم. (2017م). اللصوصية وقطاع الطرق في الأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين. مجلة الحكمة. العدد10. الجزائر.

9- جورج بيار. (1985م). جغرافية السكان. بيروت: منشورات دار عويدات.

10- الحموي ياقوت.(1995م). معجم البلدان. ج1. بيروت، لبنان: دار صادر.

11- الحميري عبد المنعم. (1984م). الروض المعطار في خبر الأقطار. بيروت ، لبنان: مطابع هيلدبيرغ.

12- ابن خلدون عبد الرحمن. (1421هـ-2000م). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ج6. بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

13- ابن الخطيب لسان الدين. (1393هـ -1973م). الإحاطة في أخبار غرناطة. المجلد الأول. القاهرة: مكتبة الخانجي.

14- رمضان رابح.(2007م-2008م) النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين(رسالة ماجستير). إشراف محمد بن معمر. جامعة السانية. وهران.

15- الزيري عبد الله بن بلكين.(دتا). كتاب التبيان. مصر: دار المعارف.

16- سيسالم عصام سالم. (1984م). جزر الأندلس المنسية(التاريخ الإسلامي لجزر البليار -89-685هـ/708-1287م). دار العلم للملايين. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

17- سالم عبد العزيز. (1990م). تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

18- الشنتريني أبي الحسن علي ابن بسام. (1417هـ-1997م). الذخيرة في محاسن الجزيرة. القسم الأول. المجلد الأول. بيروت، لبنان: دار الثقافة.

19- القادري بوتشيش إبراهيم. (دتا). مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

20- ابن القوطية. (1989م). تاريخ افتتاح الأندلس. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

21- عميرة جويدة.(2007م). السياق التاريخي والديموغرافي لهجرة الجزائريين. دفاتر مخبر التغيير الاجتماعي، العدد1. الجزائر.

22- عنان محمد عبد الله. (1389هـ-1969م)، دولة الإسلام في الأندلس-العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها إلى الفتح المرابطي. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

23- مؤنس حسين. (1413هـ-1992م) الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة 512هـ-1118م - مع أربع وثائق جديدة. مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

24- المراكشي ابن عذارى. (1400هـ-1980م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج2. بيروت، لبنان: دار الثقافة.

25- المقري التلمساني أحمد بن محمد. (1388هـ-1968م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج1. بيروت: دار صادر.

26- المغربي ابن سعيد. (دتا). المغرب في حلى المغرب. ج2. مصر: دار المعارف.

27- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، (2003م)، لسان العرب، ج15، بيروت: دار صادر.

28- العاملي ابن سماك. (2010م). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

29- النشار محمد محمود. (2007م). دراسات في تاريخ اسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى. القاهرة: مطبعة الصحوة.

30- النووي الامام أبي زكريا يحي بن شرف. (دتا). الأربعون النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، رقم 01، وهران: مكتبة الندى.